مفهوم الثقافة.. تمثلاته شرقا وغربا

محمد الشحي

استهل غسان عبدالخالق مقاله «الثقافة والحياة العربية المعاصرة» باقتباس من (هنتنجتون، صدام الحضارات) يؤكد على ارتباط الثقافة بالقوة ارتباطًا وثيقًا، وأنّ هناك دلائل تاريخية تشير إلى هذه التلازمية بين المصطلحين الكبيرين. هذا الارتباط الذي أقامه هنتنجتون، واستهل به عبد الخالق مقالَه، ليَعود بنا إلى فوكو(١٩٨٤) حين تكلم في محاضراته عن سلطة المعرفة، ذلك المفهوم الذي قلب لنا مفهوم المعرفة؛ إذ كانت المعرفة أداة في يد السلطة، لكن اتضح لاحقًا أنّها هي من يمارس السلطة على الأفراد في الحقيقية، وعليه أصبحت محور الحديث عند الباحثين في هذه العلاقة الشائكة، ومنهم هنتنجتون وعبدالخالق.

تناول عبدالخالق مفهوم "الثقافة" قافزًا مباشرة إلى التمثلات الواقعية لهذا المفهوم، ومحاولة تلمّس الأبعاد الملموسة له فيما أسماه "محاولة التموضع في المنظورات الواقعية التي استقر عليها المفهوم". وفي رأيي، أنّ المؤلف قد وفق في هذه الخطوة؛ لأنّ مفهومًا كهذا قد دخل حقل الابستمولوجي (المعرفة) بقوة، ونراه يتردد مضافًا إليها الحقل الابستمولجي الأصغر (الثقافة العربية، الإسلامية، المسيحية، الغربية، الأوربية..). لذلك أفضل، شخصيًا، تجاوز التعريفات النظرية الكثيرة له لنثبت على الظواهر الممثلة لوجود المفهوم لتكون الدراسة أدقّ في نتائجها التي تراعي خصوصية ثقافة عن غيرها. حدد عبدالخالق لنفسه الطريق التي يتلمّس من خلالها هذه المنظورات الواقعية لمفهوم الثقافة؛ على الصعيد العربي بمعياره القوميّ التاريخيّ، وعلى الصعيد المعرفي الإنساني، وعلى صعيد صدام الحضارات بمعياره المتمثل في الارتقاء إلى مستوى التحديات والاستحقاقات التي تتطلبها العولمة.

أما مفهوم الثقافة على الصعيد العربيّ، كما هو متمثّل في الواقع، فيتمحور، حسب الكاتب، حول الأدب والفن والفكر المحض؛ مستبعدًا في ذلك الاقتصاد والسياسة والعلوم والاجتماع، ويرى أنها مفاهيم ما عادت متمثلة في الواقع العربي كما كان سابقًا، دونما استدلال حقيقيّ على ذلك. ولكن مجرد غياب الدلائل لا يعني بالضرورة خطأ الحكم؛ فبالنظر إلى بدايات اليقظة العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر، فإنها يقظة أدبية بامتياز. وعليه، فإنّ النسق الثقافي يحتاج إلى وقت أطول لكي يتكون الوعي بضرورة تطبيق اليقظة على سائر المجالات الأخرى (السياسة، الاقتصاد، العلوم..).

ينتقل الكاتب إلى مفهوم الثقافة على الصعيد المعرفي الإنسانيّ، ليقرر أنّ المنهج الأنثروبولوجي هو السائد في دوائر البحث والتنظير من حيث كشفُه عن أساليب الحياة للشعوب. فكثير من الاكتشافات العلمية في حقل الأنثروبولوجيا منذ القرن الثامن عشر ساهمت بفعالية في تكوين صورة عن الإنسان وطبيعته الاجتماعية بالتزامن مع اكتشافات علم الآثار (أركولوجيا)، لكن من غير أنْ تكون هذه الصورة ملزمة لأحد من الشعوب.

ولا يزيد مفهوم الثقافة على صعيد صدام الحضارات عن الصعيد المعرفي الإنساني إلا أنه يتجه إلى التفكير بكيفية الدفاع عنه وكيفية إلزام الآخرين به؛ إيمانًا بالمقولة الداروينية "المستقبل في صراع البقاء متاح فقط للأصلح بما هو أقوى". ويحدد الكاتب لهذا الصراع مع متغير الثقافة العربية أربع تقاطعات: الموضوع، والتاريخ، والجغرافيا، والاستحقاقات.

فمن حيث الموضوع؛ يتمثل الصراع في حركة الاستشراق الحديثة التي تتخذ من الشرق عمومًا موضوعًا للدراسة والتحليل، وبالتحديد الثقافة العربية الإسلامية، ولا أدلّ على هذا من الحركة التي قادها لورانس العرب في الجزيرة العربية بهدف تفكيك الدولة العثمانية بغية القضاء عليها. نعم، إنّ أجندة الاستشراق قد تغيرت لاحقًا لتصبح أكثر علمية من كونها إمبريالية، لكن بالوقت ذاته لا يمكن غض النظر عن الأصول التي انطلقت منها حركة الاستشراق.

ومن حيث التاريخ والجغرافيا؛ يضطر الصراع للتعامل مع الثقافة العربية كونه أحد عوامل الصراع السياسي التاريخي الطويل للسيطرة على ما يسمى جغرافيا "الشرق الأوسط". سأستدل بما انتهت به الجملة السابقة كي أثبت هذا الصراع الحضاري؛ إذ مجرد إطلاق مصطلح "الشرق الأوسط"، الذي انبثق إلى الوجود مع تيودور هرتسل، عام ١٨٩٧، ليَحملُ في طيّاته الامبريالية الغربية التي جعلت من نفسها مركزًا للعالم وما سواها إلا "شرق أدنى" و"أوسط" و"أقصى". أليس هذا تجليًا واضحًا للصراع الحضاريّ!

وأخيرًا، من حيث الاستحقاقات؛ إذ يتطلب تمثل الثقافة العربية بغية إدراك الأدوات التي تستخدمها والتحديات التي تفرضها والأهداف التي تتجه إليها. ليخرج لنا هنتنجتون، أخيرًا، بمفهوم استراتيجي جديد للثقافة بما هي تعبير لطيف وهادئ عن السيادة والهيمنة والنفوذ، وبما هي الثابت الذي يجب دعمه بمتغيرات القوة التقليدية العسكرية أو الاقتصادية أو العلمية.

فيما يجد الكاتب نفسه ملزَمًا بتقديم المقصود بالحياة العربية المعاصرة، لينتهي من خلال اتخاذ الإطار القانوني الدستوري محددًا للحياة العربية المعاصرة - إلى الفهم الهيجلي للدولة بما هي تجسيد عقلاني دستوري حديث لحرية الجماعات البشرية في أن تكون وأن تختار وأن تفكر وتعبر وتعيش وتتقدم. على أنه يؤكد على الفرق الثاني بين بنية الإطار الواقعي للحياة العربية المعاصرة وبين بنية الإطار المأمول؛ فالدولة القُطْرية العربية المعاصرة ما هي إلا تعبير عن الفهم الإداري الفني للدولة، فيما ينبغي النظر إليها والعمل على أن تكون تعبيرا تاريخيا سياسيا ثقافيا عن إرادة جمعية قومية للحرية. وهنا تكمن ازدواجية في المفاهيم في العالم العربي؛ فلا مفهوم الدولة كائن بمعناه الدوليّ من حيث توفير كافة إمكانات الحرية للجماعات البشرية؛ ولا يخفى تراجع العالم العربي في المؤشرات العالمية لحرية الشعوب في التعبير عن آرائها وتقرير مصائرها.

عدّ عبد الخالق سقوط الاتحاد السوفييتي، وبالتالي انتهاء عصر الاشتراكية الفاشية، نصرًا للغرب الرأسمالي الذي أتى بمفهوم التقويض (التفكيك) على يد جاك دريدا؛ ليفكّك بذلك أسس النظام الفاشيّ المتمثلة في الماركسية الشمولية. ولا يخفى ما كان للماركسية من امتداد جبّار في العالم عمومًا، والعالم العربي الإسلامي خصوصًا؛ كونَه يؤكّد على الشمولية القومية التي أكدت عليها كثير من النصوص الدينية الإسلامية وتشبّث بها العالم العربي على الرغم من مجيء عهد الدول القطرية وانحسار الخطاب القوميّ. هذا السقوط الثقافيّ في أساسه جعل المثقفين العرب منقسمين بين يساريين شموليين مخلصين للشمولية الاشتراكية وبين المثقفين التقدميين الليبراليين؛ غير منتبهين للديمقراطية المؤسسية التي ملأت الفراغ الشمولي الفاشيّ، وبذلك وقعوا في التخلف عن المفاهيم التي قوّضتها تفكيكية دريدا. نتج عن هذا التخلّف التفاف غربيّ على المفاهيم الإسلامية التي يُشمّ منها رائحة شمولية اشتراكية؛ من مثل: لاديمقراطية الإسلام، لاديمقراطية الثقافة العربية، واحتقار النساء والأطفال. على الرغم من انطلاق الآلة الإعلامية الغربية من مغالطات؛ أولّها تنصّل الغرب من مظاهر التشدد الديني في العالم العربي. وما من شك أنّ وقوع العالم العربي تحت وطأة الاستعمار الغربي كان له أثره في تفشّي الفقر وبالتالي انتشار الجهل الذي ينتج عنه بالطبيعة أزمة هوية للذات العربية تجعل العربي يستفز لأصغر التهديدات الثقافية.

على الصعيد الثقافي للحياة العربية المعاصرة، يرى عبد الخالق أنّ حصر الثقافة في معناها الأدبيّ، وبالتحديد في شكلها الروائيّ، لم يحمل جديدًا إلى الواقع العربي؛ إذ إنّ مجمل الأعمال الروائية لم تزل تعكس أشكالاً رعوية أو ريفية على الصعيد المضمون العميق لها، بينما هي تضطلع بالدور الثقافي السياسيّ في العالم الغربي. كذلك، يطرح، مستغربًا، تساؤلا حول فصل الأديب والفنان والمفكر عن عالم السياسة واتخاذ القرار. ونادى إلى إنشاء شبكة ثقافية سياسية وطنية أو قومية ذات وزن نوعيّ. وهنا، لا أجد مبررًا لعدم الإشارة إلى الفقر العربي في ترجماته لمختلف ما ينتج في الشرق والغرب؛ فما يكتب في الغرب في عشرينات القرن الماضي لم نترجمه إلا في الثمانينات، وبذلك نكون متأخرين ستة عقود على الأقل في الحقل الواحد، أضف إلى ذلك الكثير من العناوين التي كتبها العرب (أو من هم من أصول عربية) بلغات أجنبية، لم تترجم كلها، بل أغامر لأقول أن معظمها لا يزال بعيدًا عن متناول يد العربيّ. انتهى عبد الخالق في مقاله إلى الدعوة إلى تأكيد الشواخص الرئيسة في علاقة المثقف بالدولة القطرية العربية المعاصرة؛ وهي: ضمان حرية التعبير والتفكير، واحترام التعددية واستبعاد الاستئصال والتغييب. وإلا فإنّ الثقافة ستظل تشتبك وتتقاطع مع الحياة العربية المعاصرة في ثلاثة محاور رئيسة؛ هي: الحداثة بما تحمل معها من مفاهيم المؤسسية والنظام والعقلانية والعلم والتعددية التي هي من صميم المتن العربي الإسلامي الذي علاه كثير من ركام حقب الانحطاط. والعولمة بما يصدر منها من سياسات هيمنة اقتصادية ومعرفية تجعل من العالم العربي «شرق أوسط» لها، وبما تحمله من ايديولوجيات ذات روائح داروينية متوحشة. وصدام الثقافات التي تحمل في طيّاتها إمبريالية غربية في إطار أدبياتها الثقافية.

الحق أن عبدالخالق تمكّن من عكس الواقع الثقافي العربي، واختصره في تجلياته العالمية والقومية والقطرية. وأجده قد وفّق في توصيفه ذاك، لولا تفضيله في بعض الأحيان للاختصار وعدم ذكر الأمثلة الحياتية على بعض الأحكام التي يبنيها، والاستقراءات التي يتتبعها.

Alshehhim@hotmail.com